كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثامنة باللغة العربية: مقدمات قيام حكم ذاتي قوي في العراق

اسم المحاضرة الثامنة باللغة الإنكليزية : Preliminaries for a strong self-rule in Iraq

مقدمات قيام حكم ذاتي قوي في العراق :

حصل تحسن ظاهر على ولاية بغداد امتدت آثاره على الولايات الاخرى في النصف الأول من القرن الثامن عشر عندما تولى حسن باشا ولاية بغداد في ١٧٠٤ ، وقد اثبت انه اكفأ الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والادارية، وشكلت مدة حكمه الطويلة نسبيا (١١١ – ١١٣٦٦ هـ/ ١٧٠٤–١٧٢٣) وامتدادها في عهد ولده احمد باشا (١١٦٠ – ١١٣٦ هـ /١٧٢٣ – ١٧٤٧ م) نقطة تحول في تاريخ العراق.

وكان هذا الوالي قد ولي قبل ذلك قونية وحلب والرها وديار بكر واكتسب خبرة ادارية وعسكرية كبيرة وطبق لدى وسوله بغداد النظام الذي عرفه عن كثب حينما عاش في سراي العاصمة العثمانية حيث يستخدم الشراكسة الارقاء الذين يجلبون اطفالا ويدربون تدريبة خاصة ليصبحوا موظفين في حكومة السلطان، فاستقدم فتيانا من بلاد الكرج وقفقاسيا ودربهم لهذا الغرض كمماليك في مدرسة أقامها وعلمهم فنون القتال وتعاليم الدين الاسلامي .وبلغ عددهم في البدء مائتين، وعهد اليهم بعد تخرجهم بالمناصب الادارية والعسكرية العليا في الولاية وبالتدريج أصبح هؤلاء قوة هامة فاقت قوة الانكشارية والبدء عرفت بالمماليك(بالتركية :كوله مند)، وجدد حسن باشا الديوان الذي ضم الى جانب الوالي كلا من الكهية والقاضي والدفتردار والخزنة دار، وتقرب حسن باشا من الأهلين بإلغائه الضرائب على المواد الغذائية وعلى الاخشاب المستوردة إلى بغداد، وقام بإصلاحات عمرانية من ابرزها تجديد جامع السراي(جامع جديد باشا)وتعمير خانات بغداد وبناء خان جديد بين النجف وكربلاء، كما أصلح عدد من القناطر .وشن حملة كبرى ضد قبائل المنتفق، وتمكن من اخضاعها بعد ف ا رر شيخها مغامس الى الحويزة .ثم ربط حكم البصرة به فتحولت الى متسلمية تابعة لولاية بغداد .كما تسكن بجهود دبلوماسية وعسكرية من القضاء على حركات العشائر الكردية وسيطر على منطقة سنجار التي ربطت ادارتها ببغداد.

نجح حسن باشا بعد جهود مضنية في خلق حكم مركزي مستقر بعد أن هدأت حركات العشائر وقضى على فوضى الانكشارية .وادى ذلك الى تأمين الطرق التجارية وانتعاش الحياة الز ا رعية لتوجه افراد القبائل الى الاستقرار والزراعة.

وفي أواخر حكم ولاية حسن باشا تجدد الحركات على الحدود العراقية– الايرانية في اعقاب سيطرة قبائل الأفغان بقيادة(مير محمود)على بلاد فارس وانهائها موقتا الحكم الصفوي في ١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م، ونظراً لتزايد خطر الافغانيين ورغبة الدولة العثمانية في الحيلولة دون المراد قيصر روسيا بطرس الأكبر في احتلال مناطق ايران الشمالية، فقد تدخل العثمانيون في بلاد الكرج، وتوصلوا إلى اتفاق مع روسيا في ١١٣٧ هـ /١٧٢٤ م باقتسام شمالي ايران كما ان القوات العثمانية توغلت بقيادة حسن باشا في غرب اي ا رن واحتلت كرمنشاه .

وفي خلال هذه الحملة توفي حسن باشا وهو في طريقه الى همذان في (١١٣٦ هـ /١٧٢٣ م)فخلفه ابنه أحمد باشا في ولاية بغداد وقيادة الجيش العثماني. كان عهد احمد باشا استمراراً لعهد ابيه، وسار على سياسته، في اقرار الاستقرار والأمن وتميز عهده باحتدام الصراع العثماني الايراني، فقضى شطراً كبيراً من سني حكمه في صد التدخلات الإيرانية في شؤون العراق، مما أدى الى عدم توفر الوقت المناسب للقيام بأعمال عمرانية.

بدأ احمد باشا عهده باحتلال همذان في ١١٣٧ هـ ١٧٢٤ /م وبعد سنتين اندلعت الحرب بين العثمانيين والشاه(اشرف الافغاني)ثم عقد الصلح بين الطرفين في ١١٤٠ هـ /١٧٢٧ م اعترف فيه اشرف للعثمانيين بالسيطرة على المناطق الغربية والشمالية الغربية من ايران.

غزوات نادر شاه للعراق :

كان ظهور نادر قلي، الذي عرف فيما بعد بنادر شاه، في ايران ايذانا بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة، عانى منها العراق والخليج العربي الكثير . فلقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي إلى قبيلة افشار التركمانية أن يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على أثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني، ليوسع من نفوذه بصفته زعيما لقبيلته من ناحية، وحاكما على احدى مدن خراسان، فادعى انه انما يتوسع باسم سيده طهماسب مرزا المدعي بالعرش الصفوي، فضم خراسان وبلاد الأفغان، مما دعي بالشاه طهماسب الى أن يجعله قائدا عاما لقواته ومنحه لقب (طهماسب قولي خان)أي عبد طهماسب، وتمكن نادر بعد هذا من الحاق الهزيمة بقوات الافغانيين كان يتزعمها اشرف خان في معركة عند نهر مهماندوست سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥ م ، فتخلى الافغان على أثرها عن العاصمة اصفهان منسحبين الى شيراز ودخل نادر بقواته اصفهان واعلن عودة الحكم

الصفوي الى ايران، ثم تحرك بعدها لملاحقة القوات الافغانية في جنوبي البلاد، وفي ناحية شمال شرق شيراز حدث الصدام المتوقع بين قوات الطرفين، فكان النصر حليفاً لنادر، وتقهقر الافغان نحو بلادهم الأصلية بعد أن فقدوا معظم قواتهم، وقائدهم اشرف خان نفسه.

وبعد هزيمة الأفغان وسقوط اصفهان، وجه نادر اهتمامه صوب العثمانيين، الذين كانوا يسيطرون على مناطق واسعة من غربي اي ا رن، فقام بمهاجمة الحامية العثمانية في نهاوند، واحتلال المدينة سنة ١١٤٢ هـ /١٧٣٠ م، ثم تقدم واستولى على همذان واردلان وكرمنشاه، وعلى مناطق الشمال وعاصمتها تبريز .وانكر المعاهدة الموقعة من الصفويين والعثمانيين، وعين نفسه وصية على الطفل عباس ميرزا، بعد ان نحى اباه طهماسب عن العرش وتسلم هو مقاليد السلطة الفعلية في البلاد.

وسرعان ما كشفت اعمال نادر التالية عن حقيقة نواياه التوسعية، واطماعه الرامية نحو احتلال العراق والسيطرة على مقدراته السياسية والاقتصادية، متذرعاً بعلل واهية، كلما أعوزته الظروف ذلك .ففي خريف سنة ١١٤٥ هـ/ ١٧٣٢ م بدأ نادر شاه زحفه من العاصمة اصفهان باتجاه الحدود العراقية، وبعث برسالة الى أحمد باشا يتوعده فيها وينذره بانه ا زحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلا :

(نحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل النستريح في ظل اسوارها) .

فأسرع أحمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنة ومندلي وبدرة وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين، ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد. وكانت القوات الايرانية تقدر بمائة ألف جندي، وقد واجهت مقاومة عنيفة عند توغلها في الاراضي العراقية أجبرتها على التقهقر في عدة مناطق.

وكانت تلك القوات قد توزعت عند دخولها الأراضي العراقية ضمن عدة محاور فتقدم قسم منها باتجاه كركوك اربيل وقسم توجه نحو الموصل .أما القوة الرئيسة فواصلت زحفها نحو بغداد، وقد أضطرت القوات في محوري كركوك – اربيل– والموصل الى التقهقر بعد أن تكبدت خسائر فادحة وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل.

وفي أواخر رجب ١١٤٥ هـ /كانون الأول ١٧٣٢ م ، بدأ نادر قلي بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد واستعان بمهندس أوربي يرافقه في حملته، في انشاء جسر عائم من جذوع النخيل،

على بعد عدة أميال من شمال بغداد، وذلك لتمكين القوات الايرانية من العبور الى الجانب الغربي من نهر دجلة، واذ ذاك أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام إلى الجانب الشرقي ليكونوا في حماية سورها المنيع، وفي أثناء ذلك قامت وارتال من القوات الايرانية قد بعثها نادر قلي باحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة(الديوانية.)

وبالرغم من الضيق الذي اصبح عليه السكان في بغداد بسبب الحصار الذي فرض عليها بحيث أخذت ويلات المجاعة شكلا مروعاً فأكل الناس الحمير والكلاب والقطط وانتشرت الاوبئة، وبلغت الحالة كما يصفها – الشيخ عبدالرحمن السويدي– أنه أثناء خروجه من المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة، شاهد في طريقه امراة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها، بالرغم من ذلك فان القيادة الايرانية حين دعت بغداد للاستسلام، تلقت خطابا شديد اللهجة من وجهائها وعلمائها جاء فيه(:نحن لا نسلم حجرة من احجار بغداد حتى نقبر في مكاننا هذا، وان ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة العدد متواصلة المدد، ولم يكن توقعنا عن مناوشتكم في بعض الأيام دون حكمة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.)

وفي اليوم السادس من صفر ١١٤٦ هـ /١٩ تموز ١٧٣٣ م دارت معركة حامية بالقرب من الدجيل أستمرت تسع ساعات متواصلة بين الجيش العثماني والجيش الايراني وانتهت بهزيمة الايرانيين وتكبدهم خسائر فادحة تقدر بثلاثين الف قتيل وثلاثة آلاف أسير، كما فقدوا مدفعيتهم وذخائرهم، وهرب قائدهم نادر قلي، الذي اصبح شاها فيما بعد، ومعه فلول قواته المنهزمة الى الأراضي الاي رانية .ويقال بأن الغنائم التي جمعت من المعركة، تكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة اما بغداد التي مضى على حصارها سبعة شهور، فان حاميتها قامت عند وصول أنباء الانتصار بمهاجمة الفوة الإيرانية المرابطة عند اسوارها .فقتل معظم أفرادها وهرب الباقون.

وبعد أقل من ثلاثة اشهر، عاودت ايران عدوانها على الأراضي العراقية في محاولة يائسة أخرى، لإزلة الهزيمة التي لحقت بها من قبل .فعبرت قواتها الحدود العراقية، وتقدمت ارتال منها باتجاه محور كركوك– أربيل وعند وصولها سهل ليلان جنوبي شرقي كركوك في الخامس عشر من جمادى الاولى ١١٤٦ هـ/ ٢٤ تشرين الأول ١٧٣٣ م، واجهت مقاومة عنيفة ثم دارت معركة حامية عند مضيق(آق دربند)، أسفرت عن تكبد الطرفين خسائر فادحة .وقد أضطر نادر الى طلب الصلح

لاسيما أخباراً عن تفاقم الاضطرابات في مختلف انحاء ايران ، وقيام(محمد خان بلوج)حاكم أقليم فارس بثورة للإطاحة بحكمه.

وبعد مفاوضات استمرت مدة تزيد على سبعة أيام، عقدت معاهدة صلح في اليوم الحادي عشر من رجب ١١٤٦ هـ/ ١٩ كانون الأول ١٧٣٣ م، عدت فيها الحدود بين الدولتين هي التي خططتها معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ غير أن اطماع ايران لم تحل دونها أية معاهدة، اذ عاودت عدوانها على العراق مرة أخرى، وتركز في هذه المرة على البصرة .ففي نيسان ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٥ م دخلت الى شط العرب ثلاث سفن إيرانية من نوع(الغراب)وخمسون سفينة كبيرة متنوع(الترانكي)، بالإضافة الى قوة ايرانية برية مؤلفة من ثمانين ألف جندي، بدأت بالتقدم أعلى النهر، وعند الجزء الضيق من شط العرب :أسفل البصرة بخمسة عشر ميلا، دار قتال لمدة ثلاثة ايام انتهى بانسحاب القوات المعتدية.

ويذكر جون، غوردن لوريمر احد المختصين بتاريخ الخليج العربي، أن نادر شاه طلب من الانكليز أن يساعدوه في عدوانه على البصرة، غير أن سلطات بومباي أصدرت أوامر حاسمة لممثلها في بندر عباس بالا يضع أية سفينة من السفن الحربية العائدة الى شركة الهند الشرقية في خدمته أو تحت تصرفه ، إذ كانت تخشى من تعرض مصالحها الى الخطر.

عدوان سنة ١٧٤٣ وحصار المدن العراقية :

وبعد سبع سنوات شنت ايران هجوما واسعا على العراق، وعبرت قواتها بقيادة الشاه نفسه، وكانت تقدر بمائة وسبعين ألف جندي، الحدود من جهة مندلي وشهرزور، وتقدمت باتجاه محور كركوك اربيل .

ولما كان هدف القوات الايرانية– الاستيلاء على بغداد، فان خطتها كانت ترمي الى السيطرة على الموصل أولا، وذلك لقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية وبغداد مما يسهل احتلالها من قبلهم، لذلك واصلت تلك القوات تقدمها نحو الموصل، التي كانت قد تسربت اليها أنباء من القوات الايرانية نفسها عن الخطة المبينة، فاستعدت للدفاع عن كيانها بحماس شعبي منقطع النظير، وهيأت الخنادق واصلحت الأجزاء المتصدعة من سور المدينة، وحصنت القلاع بالمدافع ، وتجهزت بالذخيرة اللازمة.

وقد بعث نادر شاه، وهو في طريق تقدمه نحو الموصل : بخطاب يحذر فيه أهاليها من مغبة المقاومة ويدعوهم إلى الاستسلام، ولكن الموصل اجابت بخطاب شديد اللهجة، بعد أن شهدت

اجتماعا شعبيا كبيراً، وقد جاء في الرد(:فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب، أو كما طن في لوح الهجير ذباب، أفرأيتم أن القصاب يقهره كثرة الغنم، أو الاسد الغشمشم يدهشه تراكم النعم، كلا ستعلمون ثم كلا ستعلمون الرقاع بالقراع، ونحن الاسود الضارية، والسباع الكواسر العادية، أسيافنا صقيلة، وسطوتنا ثقيلة .وحلو منا رزينة، وقلوبنا كالحديد متينة، وبلدتنا بحمد الله حصينة .. فلا سمعاً لكم ولا طاعة وأهلا بالسعادة والشهادة هذه الساعة، فما بيننا الا ما صنع الحداد من سيوف حداد ورماح مداد.)

وفي ٢١ رجب ١١٥٦ هـ/ ١٠ ايلول ١٧٤٣ م وصلت قوات ايرانية الى قرية(يارمجة)شرق دجلة على بعد زهاء خمسة كيلو مترات من مدينة الموصل .فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي بارسال ثلة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل للتصدي لها، و بعد قتال عنيف تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة بالرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها.

وبعد اربعة ايام وصل الشاه وقواه الى(يارمجة)، فعسكر فيها .وأمر بنصب المعابر عبر دجلة، وارسل قسما من قواته إلى الجانب الغربي من النهر، كي يكملوا الالتفاف حول المدينة .كما بعث رسولا الى الباشا الجليلي محذراً اياه من بطشه– على حد زعمه، فجاءه الجواب(:وما بيننا وبينك الا السيف واذا أرسلت سفيراً آخر نرجعه اليك بلا رأس.)

ثم احاط الايرانيون بالمدينة تماما، واقاموا المتاريس والاستحكامات، وشيدوا اثنى عشر استحكاما تحتمي بها مدفعيتهم التي كانت تتكون من) ١٦٠ (مدفعاً و (٢٣٠) مرمية هاون .وقد فتحت هذه المدافع نيرانها في ٦ شعبان ١١٥٦ هـ/ ٢٥ايلول ١٧٤٣ م ولمدة ثمانية أيام بلياليها دون توقف، وتصدع السور في عدة أماكن، ولكن المدافعين الذين كانوا مسلحين بالإيمان والشجاعة، كانوا دائما يتمكنون من اصلاح الثغرات قبل أن يجد الايرانيون سبيلا إلى النفاذ خلالها .وتصف المصادر المحلية المقاومة الباسلة والرائعة التي أبداها أهالي الموصل، وكيف أن قنابل المدفعية الايرانية التي (كانت نهاراً تتساقط على الأسوار كالمطر، وليلا تتناثر كنجوم من اديم السماء)لم تكن تؤثر في عزيمتهم وصمودهم وهذا ما جعل نادر شاه ينقل مقر قيادته من(يارمجة)إلى موقع قريب من المدينة، ليشرف بنفسه على القتال، فأمر بقصف مدفعي شديد لبرج(باش طابية)في شمال الموصل، حيث مقر الحكومة، أدى الى تهدم جانب من البرج .لكن المجهودات العظيمة التي احكمت البرج من

جديد، وواجهت القوات الايرانية ضربات ا ردعة وقوية عندما حاولت النفاذ إلى المدينة، وتكبدت عددا كبيراً من القتلى.

وجد نادر شاه ثبات اهل الموصل وصمودهم، وتكبد قواته الكثير من الخسائر ونفاذ مؤنه، يئس من الاستيلاء على المدينة، وأدرك عدم جدوى القتال، فأضطر الى ان يطلب الصلح. ويذكر نيبور أن حصار الموصل أظهر ان الايرانيين لا يحسنون فن المدفعية، وانهم لا يعرفون شيئا من فنون حصار القلاع. وفي ٤ رمضان ١١٥٦ هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٧٤٣ م، انسحب نادر شاه بقواته الى الوسط بعد حصار للموصل دام اكثر من أربعين يوما، تعرضت خلالها قرى الموصل الى التخريب بشكل ليس له نظير على يد القوات الايرانية، كما نهبت وأحرقت اديرة عديدة.

ان صمود الموصل أفشل جميع مخططات الشاه التوسعية، خاصة وأن قواته التي كان قد بعثها الى بغداد والبصرة لم تتمكن أيضا من تحقيق اهدافها، بالرغم من أعمال القتل والتدمير التي قامت بها في معظم قرى هاتين المدينتين ونواحيهما. ولذلك عقد الشاه صلحا والي بغداد أحمد باشا، الذي أشترط عليه الانسحاب الفوري من الأراضي العراقية. وواجهت البصرة خلال الحصار الايراني للموصل، عدوان ايرانيا اذ قامت في,٧ رجب ١١٥٦ هـ/ ٢٨ اب ١٧٤٣ م قوات ايرانية تبلغ اكثر من اثني عشر ألف جندي بهاجمتها وفرض الحصار عليها، وبعث قائدها بخطاب الى متسلم البصرة يطلب فيه تسليم المدينة .لكن المتسلم بعد، أن تشاور مع أعيان أهل البصرة، رفض هذا الطلب، وجاء في الخطاب الذي بعثه الى قائد القوات الايرانية ...(وها نحن لملاقاة من ا رمنا بسوء متأهبون، وبالله تعالى على من بغي علينا مستعينون، ولنصرة الذي يؤيده من يشاء منتظرون، لا نرهب من الخوف لان عندنا من المقرر المعلوم، أنه لم يمت أحد قبل انقضاء اجله المحتوم، وانه من فاز منا بالشهادة فقد نال السعادة، ورزق الحسنى وزيادة .وأن النصر ليس بكثرة الجنود والعدد، ولا يجمع الخيول السورية والعدد، بل كما قال الله تعالى في محكم القرآن العظيم(وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)وان الله عز سلطانه قد اظهر كنز سره المصون بقوله تعالى(:وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.)

غير أن القائد الايراني بعث بخطاب آخر يكرر فيه طلب تسليم المدينة لقواته المعتدية، ولكن جاء الرد الابي بتصميم أهالي البصرة على الذود عن مدينتهم مهما كان الثمن، ومما ورد فيه(ولم يكن بنا

ولله الحمد عجز ولا تعب، ولا وهن ولا نصب، وليس علينا قلة من ((الجبخانة))والذخائر ولا المقاتلة والعساكر، ومعلومكم ان قتيلنا شهيد وقتيل من اعتدى علينا في عذاب شديد، لقوله تعالى في كتابه المبين(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)، وتشهد لذلك التي ترمي من مدافعكم فهي علينا بردا وسلاما.)

لق .فشلت القوات الغازية في عدوانها على البصرة طيلة حقبة الحصار الذي ضربته على المدينة، والذي دام أكثر من ثلاثة أشهر، وبالرغم من عدم تكافؤ الأسلحة بين الجانبين، حتى اضطرت القوات الايرانية في آخر الامر الى الانسحاب في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٧٤٣ م. وخلال تلك العمليات العسكرية، ارتكبت القوات الايرانية الكثير من المذابح الرهيبة في عدد من القرى الواقعة على ضفة شط العرب، لا سيما في قرية(السبيليات)، كما لم تنج مدينة الزبير من الغزو والتخريب والعبث قبور الأموات وهدم بعض الأضرحة.

وقد ادى انشغال اي ا رن بمشاكلها الداخلية، على اثر مصرع نادر شاه في سنة١١٦٠هـ /١٧٤٧ م الذي كان ايذانا بانتشار الفوضى في جميع أرجاء البلاد، حيث بدأت صراعات دموية على العرش، الى ان يكون العراق في مأمن من الغزو الايراني مدة عشر سنوات .ثم برزت مرة اخرى فكرة غزو العراق عن عندما تولى(كريم خان الزند)مقاليد الحكم في ايران سنة ١٧٥٧ م.